بمناسبة « المولد » :

حقائق مؤلمـــة

للأستاذ على الطنطاوى

« الكتاب أطباء الأمة . فإذا جامل الطبيب مريضه فكتم عنه داءه ، لم يبرأ منه أبداً » . « على »

هذا يوم « المولد » ، وإنه لمحطة فى طريق الزمان ، فلنقف عليه كما يقف المسافر فى المحطة ، ليلقى ببصره حوله ، فينظر إلى أين يسير ، وكم قطع من طريقه إلى غايته ، وهل يمشى إليها على الصراط السوىّ ، أم قد ضلّ عنها وجانفها ، وهل يساير القافلة أم شرد عنها وفارقها ؟ ولنحاسب فيه أنفسنا كما يحاسب التاجر نفسه ، فيرى ما له وما عليه ...

أما أنا ، فقد وقفت ونظرت ، فأبْتُ وقد فاضت النفس حسرة ، وامتلأت ألماً ، وأيقنت أن الذى هلينا ، أكثر من الذى لنا ، وأننا قد « خسرنا » !

ولم يكن التشاؤم من شأنى ، ولا اليأس مذهبى ، ولكن ما نحن فيه يُؤيس الآمل ، ويكْرُب المتفائل ، وأين لعمرى باب الأمل حتى أَلجه ، وأية حال من أحوالنا تبشر بالخير ، وتدعو إلى السرور : أحالنا فى بيوتنا ، أم فى مدارسنا ، أم فى أسواقنا ، أم فى دواوين حكومتنا ؟ وأى طبقة من طبقاتنا تتبع هدًى نبينا : أعلماؤنا أم قادتنا ، أم أدباؤنا ، أم عامتنا ؟ وأى بلد من بلداننا ، كان البلد الإسلامى الخالص : أحجازنا ، أم شامنا ، أم مصرنا ، أم عراقنا ؟

***

أما البيوت ، وهى الحجارة فى صرح الوطن ، لا يصلح إن فسدت ، ولا ينهض إن تهافتت ، فلقد كان العهد بها مؤسسة على التقوى ، قائمة على الخلق النبيل ، والود المبذول ، وكان الرجل

ويبلغ بنا البله والغفلة أن نخاطبهم باللغة الدبلوماسية — وهم لا يفهمون هذه اللغة مع الأسف من الشعوب الصغيرة ، بل هم لا يفهمونها من الشعوب الكبيرة فى بعض الأحايين !

والضمير السياسى البريطانى؟ تلك الخرافة التى يتعلق بها ساستنا حينما تضعف نفوسهم عن اختيار الطريق الوحيد المؤدى إلى حقوقنا الوطنية ، وتعجز ألسنتهم عن اللغة الوحيدة التى يفهمها الانجليز .

هذه الخرافة التى لم ننكب مرة واحدة إلا عن طريق التعلق بها ، ولم تنجح مرة واحدة إلا عن طريق اليأس منها . . ومع كل التجارب الماضية يوجد بيننا من لا يزال يثق فى هذا الضمير

ها هى ذى الهجرة الصهيونية تباح أيها الواثقون بالضمير السياسى البريطانى . فما ذا أنتم قائلون ؟ بل ما ذا أنتم فاعلون ؟

مذكرات دبلوماسية ! وبيانات دبلوماسية ! وانتظار للردود على هذه البيانات والمذكرات ، تأتيكم أولا تأتيكم بعد حين!

والهجرة تستمر ، والصهيونيون يدخلون !

أيتها الأمة العربية :

أفيك رصيد مذخور ، أم أنت من الهالكين ؟ فأما إن تكن الأولى أيتها الأمة فخاطبى القوم باللغة الوحيدة التى يفهمون ، وأما إن تكن الثانية ، فإن الإنجليز معذورون ، والصهيونيين محقون !

أيتها الأمة العربية : لا تعتمدى على رجال السياسة ، فقد تكون لهم قيود وحدود . ولكن اعتمدى على نفسك ، وادفعى إلى الأمام ليتخطوا هذه السدود والقيود !

أيتها الأمة العربية :

« احذرى رجال السياسة من أبنائك ، لا لأنهم قد يخونونك أو يخدعونك ؛ ولكن لأنهم هم قد يخانون ويُخدعون . ولأن كراسى الحكم والمناصب ، قد تكون فى بعض الأحيان وثيرة إلى حد تستنيم له الأعصاب الثائرة ، وتخمد فيه الدماء الفائرة !

أيتها الأمة العربية :

خذى الأمر فى يديك من جديد . فإنى أرى الموقف يستدعى جهود الشعوب نفسها ، لا جهود زعماء الشعوب !

وما يخدعك أيتها الأمة — فى كل قضاياك الوطنية لا فى قضية فلسطين وحدها — إلا خدوع ، يقصيك عن الأمر ويستنيم للوعود!»

تلك صيحتى لك بالأمس ، وإنها لصيحتى لك اليوم . فخاطبى القوم باللغة الوحيدة التى يفهمونها ، وإلا فسيذهب صوتك الدبلوماسى الناعم صرخة فى واد . والأمر إليك ، فانظرى ما ذا تأمرين !

سيد قطب

فيها سيداً يطيعه أهلها ويطيع هو ربه ، وكان لعمله وبيته ، لايعرف غيرهما ، ولايهمه سواهما ، وكان الولد براً بأبيه ، والزوجة موافقة لزوجها ، همها دارها ، ومطمحها إسعاد زوجها وولدها ، فتغيرت الحال ، فصارت المرأة قوامة على رجلها ، والولد متكبراً على أبيه ، والرجل داره قهوته أو ملهاه أو ناديه ، والمرأة بيتها الشارع ودينها زينتها ، تتخذها لتتجمل بها للرجال الأجانب في الترام والطريق ، لا لزوجها في المنزل ، وآثرت على دارها زياراتها وسينماها ، وربما خالف الزوج إلى غير أهله ، وخالت هي غير زوجها ، ونشأ الولد على المجون ، وشبت البنت على الاستهتار ، هذا وميزان النفقات في البيت مختل ، وحبل الود مصروم ، والتعاون على الخير مفقود ، وظل الدين غير ممدود ، وما بقي من البيوت صالحاً ، فإن الفساد يسعى إليه ، وهو يسعى إلى الفساد !

أما المدارس ، فلقد كنا نعرفها مشارق أنوار العلم ، ومنابع الهدى ، ونعرف المعلمين فيها مربين مهذبين ، ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء ، ونعرف التلاميذ وهم طلاب علم وقصاد خلق ، دنياهم مدرستهم ، وعملهم درسهم ، وأئمتهم معلموهم ، فكانت المدارس تخرج علماء ومهذبين ، أصحاب خلق متين ودين ، تعتز بهم بلادهم ، وتسمو أوطانهم ، فصار همّ التلاميذ حزبٌ سياسي ينتسبون إليه ويصرخون في مظاهراته ، ويضمون أكتافهم سلماً لزعمائه ، يرتقون عليه إلى مايشتهون من كراسي الحكم ، أونحلة ينتحلونها ، ويحملون في صدورهم شارتها ، ويهرعون إلى ناديها ، ثم لايفهمون من حقها أو باطلها إلا هذه المظاهر التي طلبوها لها وحدها ، ثم يشتغلون عن الدرس بالخلاف عليها والكلام فيها ، من غير فقه لها ، أو وقوف على مبادئها ، أو فلم سينمائي يحرصون عليه أكثر من حرصهم على دروسهم وعباداتهم ، أو رواية في مسرح ، أو صورة مكشوفة في مجلة ، وصار المعلمون — أعني أكثر المعلمين — أصحاب شهادات لا علوم ، ودعاة مذاهب سياسية أو اجتماعية ، لا دعاة إلى الله ولا إلى الخلق ، وصاروا قدوة الطلاب في قصد السينمات والملاهي ، لا قصد المساجد والمكتبات ، وصار منهم الشيوعي الذي يعلن شيوعيته ، والقوي الذي يظهر قوميته ، والجاحد الذي لايتوارى بجحوده ، والماجن الذي لايتستر بمجونه ، إي والله العظيم ، ووسدت الأمور إلى غير أهلها ، فجعل غير العالمين معلمين ، والمحتاجون إلى التربية مربين ، وتكلم في المسائل من ليس من أربابها ، وتصدر في محرابها من لم يلج بابها ، وجيء بالشباب الغراب ليعلموا البنات ، فكنا كمن يدني سلكتي[1] الكهرباء ، حتى تنقدح شرارتهما ، ويضع إلى جانبهما البارود ، ثم ينام الأحمق آمناً من الانفجار ، ما بقي والله إلا أن يجيء بالبنات ليعلمن الشباب ، وما دمنا نمشي على هذا الطريق ، فابق شيء عجيب ، وكل آت قريب !!

اللهم الطف بنا ، ولا تكلنا إلى أنفسنا ، ولا تسلط علينا سفهاءنا ، يا رب !

أما الأسواق ، فلقد كانت فيها التجارة فصار فيها الاحتكار ، وكان فيها قوم منا ، يجلبون لنا أرزاقنا ، فصار فيها أعداء لنا ، يسرقون فيخزنون أقواتنا ، ليجمعوا القروش من جيوبنا فيجعلوها ذهباً في صناديقهم ، ولقد انتهت الحرب ، وحل السلام ، ولايزال هؤلاء الفجار الأشرار يرفعون الأسعار ، ويكوون الفقراء بالنار ، لا يعرفون الإنصاف ولا الرحمة ولا الإنسانية ...

أما دواوين الحكومة ، فقد نسي من فيها أنهم أجراء الناس ، يأكلون الخبز من فضل أيديهم ، ويجلسون مجالسهم هذه لخدمة مصالحهم ، وحسبوا أنهم ملوك والناس لهم خول ، وسادة وهم لهم عبيد . ثم لم يكف أكثرهم ما يأخذون من وقت من يرجع في حاجته إليهم ، ومن كرامة نفسه حتى أخذوا الرشوة من جيبه ، وربما ... وربما مدوا أعينهم إلى عرضه ... وهم بعد ذلك جيش مجيش ، نصفهم لا يحتاج إليه ، ولا ينتفع به ، قد جاءت با الوساطات والشفاعات ، فرفعته من غير كفاية على أهل الكفايات . ومن اقتصر منهم على مرتبه ليعيش به ، عاش من قلة المرتب حيا هي كالموت ، ولم يكفه المرتب ثمن الخبز ، فكأن الحكومة تقول لصغار الموظفين : اذهبوا فاسرقوا لتعيشوا ، فإن ثمن خبز أعطيناه لكبار الموظفين ، لينفقوه على الترف والسرف والقرف[2]

ثم إن العلماء ، وهم عدة الإصلاح ، ولُسُن الحق ، ودعا الله ، هربوا واختبأوا في بيوتهم ، فمنهم من لا يرى المنكر و يعرفه ، ومنهم من يراه ولا ينكره ، ومنهم من ينكره همساً ومنهم من يعلن ولا يعرف الطريق الموصل إلى رفع المنكرات ومنهم من ملأت قلبه الدنيا ، فهو يسعى إليها ، ويزاحم عليها وربما اصطادها بشبكة من لحية عريضة ، وقيدها بسبحة طويلة وأخفاها تحت عمامة ضخمة ، وذلّ من أجلها للحكام ، وخض

(١) السلك جمع والناس يظنونه فرداً . والواحدة سلكة وهي الخيط
(٢) القرف . الاسم من المقارفة

للأغنياء ، وفقد القلب الذى يقتحم الأهوال ، واللسان الذى يصدع بالحق ، فغدا يقول ولا يستمع لقوله ، ويُنكر ولا يلتفت لإنكاره ، وجلّهم لا قلم له يخاطب به الناس ، ويسوقهم به إلى الحق ، ولا لسان ، فكيف يكون داعياً من لا يكون خطيباً ولا كاتباً ؟

والقادة ما صاروا قادة بعبقرية اختصهم بها الله ، ولا بعلم اختصوا به أنفسهم ، وأحيوا فى تحصيله لياليهم ، ولا بعقل هو فوق العقول ، وذكاء لايدانيه ذكاء ، ولكنما هى حرفة احترفوها ومسلك سلكوه : زيد وعمرو ، أما زيد فجدّ واستقام ودرس حتى أكمل الدرسة ، فصار معلما أو كاتباً ، أو موظفاً ... وأما عمرو ، فأهمل درسه ، وأضاع وقته ، والتوى مع الطرق الملتوية ، فالتحق بالأحزاب ، وعاشر الأغراب ، وولج حيث لا يحسن الولوج ، وخرج من حيث يستقبح الخروج ، ورفع ووضع ، وخرب وأصلح ، حتى عرفه الناس ، فكان نائباً ، ثم صار وزيراً ، ثم تمت آثار قدرة الله القادر على كل شىء ، فاستحال قائداً من القادة ... !

والأدباء وأهل الصحف ، همّ أكثرهم التزلف إلى القراء ، والوصول إلى رضاهم ، رأوا أقرب الطرق طريق الشهوة فسلكوه ، وركبوا فيه الصعب والذلول : من الصور المارية ، والقصص المثيرة ، وطريق الإغراب فى عرض الأخبار ، وتكبير الصغير ، وتعظيم الحقير ، وتشويه أوجه الحقائق ، فيقرأ الناشئ الشىء وضده ، فلا يؤمن من بعد بشىء ، وإن كان فى الكتاب من يدعو إلى إصلاح ، فى لغة صحيحة ، وأسلوب منقح ، لم يقرأه إلا الخاصة ، وإن كانت مجلة على هذه الصفة لم يُبع منها مع كل ألف من تلك عدد واحد !

ولعلى بالغت ، أو غلب علىّ التشاؤم ، فلم أر إلا ما ذكرت ووصفت ، ولكنى صدقت ولم أقل إلا حقاً ، ولعل الذى قلت أقل من الحق !

إن العالم اليوم واقف على مفرق الطرق ، حائر بينها أيّا يسلك منها ، ونحن أشد أهل العالم حيرة وتردداً ، فنحن فى المكان الذى تلتقى فيه محل الشرق والغرب ومذاهبهما كلها ، فيأخذ كل واحد ما تصل إليه يده ، ثم يصيح فى الدعوة إليه ، ثم يزاحم ليشق له طريقاً ... فنحن فى زحمة وضجة دونها ما يروون عن ضجة برج بابل ، والله وحده يعلم عمّ تنجلى ... فى الدين سلفيون وصوفيون ، ودعاة إلى التمسك بالمذاهب وترك الاجتهاد ، وإلى الاجتهاد ونبذ التقليد ، وإلى الأخذ بالحديث وترك كتب الفقه وإلى الاقتصار عليها ، وفى البدع دعاة إلى القاديانية والبهائية والنصيرية والتيجانية ووحدة الوجود ، وفى غير الدين شيوعيون وقوميون سوريون ، وملحدون ومستهترون ، ثم الدعاة إلى السفور والاختلاط ، والمدافعون عن الحجاب ، وفى السياسة كتلويون وعصبويون ومعارضون ومؤيدون ، وعاملون للانكليز أو للفرنسيين أو للروس ، وقائلون بالجمهورية أو بالملكية ، أو بالاستقلال أو بسورية الكبرى أو بالوحدة العربية ، والمناقشات مستمرة لا تنقطع ، والخلافات قائمة ما تقعد ، قد انشقت البيوت ، وانصدعت الأسر ، وإنى لأعرف أخوين : شيوعياً أحمر ، وعضواً فى شباب محمد ، شقيقين فى دار واحدة ، وأبوهما شيخ طريقة... وأعرف شيوعياً وأبوه نقيب أشراف ، فالإخوان فى المنزل ، والرفاق فى المدرسة ، والزملاء فى الديوان ، يختلفون أبداً ويتقاتلون ... !

فعمّ تنجلى هذه الغمرة ؟ الله وحده العالم !

هذا فى دمشق ، أما الحجاز ومصر والعراق ، فإنى أعرفها كلها وعشت فيها ، ولكن ليكتب عنها كتاب من أهل مصر والعراق والحجاز ، يفتح فى « الرسالة » باب من أبرك الأبواب ، وأكثرها فائدة ونفعاً ، إذ أن أول الدواء تصوير الداء ... !

(دمشق) **على الطنطاوى**

إدارة البلديات – كهرباء

تقبل العطاءات بمجلس منيا القمح البلدى لغاية ظهر يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٦ عن توريد لمبات وأدوات كهربائية وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس مباشرة نظير مائة مليم بخلاف أجرة البريد (٣٠ مليم) ٤٨٦٢